مجلة
مجمع اللغة العربية

الجزء الثامن

مطبعة وزارة التربية والتعليم
١٩٥٥

مجلة
مجمع اللغة العربية

الجزء الثامن

مطبعة وزارة التربية والتعليم
١٩٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحـــرير

هذا هو الجزء الثامن من مجلة المجمع ، يحوى أعمال المجمع الرسمية التى عرضت فى مجالسه أو فى مؤتمراته خلال ثلاث دورات متتابعة ، هى السادسة عشرة والسابعة عشرة والثامنةعشرة ، من سنة ١٩٤٩ إلى سنة ١٩٥٢ ، إلا بقية من البحوث التى ألقيت فى الدورة الثامنة عشرة خشينا أن يزداد بها حجم هذا الجزء ازدياداً يخرجه عن المألوف ، فأرجأناها إلى الجزء التاسع .

وهناك أعمال المجمع التى تتابعت فى الدورات التالية من الدورة التاسعة عشرة إلى دورة هذا العام ، معدة للنشر ، يرتقب الجمهور ظهورها ليتابع جهود المجمع ونشاطه .

وقد كنا نطمع حين اتجهنا بمجلة المجمع إلى مطبعة وزارة التربيـــة والتعليم أن نتمكن من إصدار أجزاء متتالية تستوعب ما تجمع فى الدورات السابقة من بحوث ومصطلحات ، ولكن على الرغم مما بذله القائمون على هذه المطبعة من جهود مشكورة فان وفرة ما لديها من أعمال لم تيسر للمجمع أن يحقق مبتغاه .

ومنذ عهد بعيد سعى المجمع إلى أن يكون هيئة لها استقلال مالى ، لكى تتمهد له أسباب العمل على نطاق واسع ، ولكى تتوافر له وسائل العناية بطبع إنتاجه ونشره . ويسعدنا اليوم أن ننوه بأن هذه الأمنية قد تحققت ، إذ أصدرت الحكومة فى عهد الثورة المبارك قانوناً للمجمع يسبغ عليه شخصية اعتبارية ويتيح له استقلاله المالى — وقد نشرناه فى صدر مواد هذا الجزء — وما كاد يصدر هذا القانون حتى أتبعه المجمع لائحة داخلية نص فيها على أن تظهر مجلته مرتين على الأقل فى العام ، وستتخذ الأهبة لتنفيذ ذلك فى القريب ، حتى تخرج المجلة حافلة بألوان مختلفة من البحوث والدراسات تمثل نشاط المجمع فى خدمة اللغة .

والله ولى التوفيق ما

فى أصول النحو

للعضو المحترم الأستاذ إبراهيم مصطفى *

النحو قانون اللغة الذى تعصم مراعاته من الخطأ فى الكلام العربى . كذلك نتصور النحو فنأخذ أنفسنا بأحكامه حين نكتب وحين نريد أن نقول قولا صحيحاً ، بل إنا لنلزم غيرنا هذه الأحكام مادام لنا سبيل إلى إلزامه .

ألا يكون من حقنا — بل من الحق علينا — أن نعود إلى هذا القانون فنتساءل كيف تقرر له هذا السلطان ولم وجبت لأحكامه تلك الطاعة ؟ أحقاً أنه يمثل نظم العربية تمثيلا صحيحاً دقيقاً لايتجاوزها ولايقع دونها ؟ .

وإذا فرض ذلك فلم كان هذا الاضطراب الشديد فى أحكامه والخلاف البعيد بين علمائه واللغة واحدة ؟

إن من واجبنا أن نرجع إلى هذا النحو فنرقب كيف وضع ، ومم أخذ ، ولم استقر له هذا السلطان .

وهذا يرغمنى أن أعود بكم بعيداً لنرى نشأة هذا العلم وخطواته ومدى سلطانه .

نشأة النحو

مهما ذكرت نشـــأة النحو برز اسم أبى الأسود الدؤلى الكنانى ، وأنه أول من وضع النحو — شاع ذلك حتى ما يرد .

وفى كلمة لى نشرت من قبل جمعت روايات المؤرخين فى هذا ورتبتها حسب أزمان قائليها وتحريت النسخ أيضاً أيها أقدم وأسلم من التحريف فوجدتها تجمع أو تكاد تجمع على أبى الأسود وإن اختلفت العبارات كما ترون .

(١) وأول من نعرف أنه تكلم فى وضع النحو محمد بن سلام الجمحى سنة ٢٣٢ . قال فى مقدمة كتابه طبقات الشعراء : « وكان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلى » ثم قال « ووضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم » وذكر من أخذ عن أبى الأسود وقال « ثم كان من بعدهم عبد الله بن أبى اسحق فكان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل » اهـ .

ولآراء ابن سلام قيمة تاريخية عظيمة لما امتاز به من صحة الرأى وقوة النقد ، ولكن نسخة الطبقات سقيمة ونصوصها مضطربة .

(٢) وأبو محمد عبد الله بن قتيبة (سنة ٢٧٦) فى كتابه الشعر والشعراء فى ترجمة أبى الأسود يقول « وهو أول من عمل كتاباً فى النحو بعد على بن أبى طالب » . وفى كتاب المعارف له « أبو الأسود أول من وضع العربية » .

(*) تلى هذا البحث فى الجلسة الثامنة للمؤتمر (١٧ من يناير ١٩٥٠) ونوقش فيها وفى الجلسة الخامسة عشرة (٢٩ من يناير ١٩٥٠) . انظر القرار الثانى من القرارات العلمية فى هذه الدورة .

(٣) وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد (سنة ٢٨٥) نقل عبارته الزبيدى أبو بكر محمد بن الحسن سنة ٣٥٠ قال: روى القالى عن الزجاج عن أبى العباس أن أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود وسئل عمن أرشده إلى الوضع فى النحو فقال تلقيته عن على . ونقل هذه العبارة الحافظ بن حجر (سنة ٨٥٠) فى الإصابة فى ترجمة أبى الأسود قال: أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود وسئل عمن نهج له الطريق فقال تلقيته عن على .

(٤) وأبو الطيب عبد الواحد بن على (سنة ٣٥١) يقول فى كتاب مراتب النحويين « كان أول من رسم للناس النحو أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب وكان أعلم الناس بكلام العرب وأبو الأسود أول من نقط المصحف واختلف الناس إليه يتعلمون العربية وفرع لهم ماكان أصل .

(٥) وأبو الفرج على بن الحسن الأصفهانى (سنة ٣٥٦) يقول فى ترجمة أبى الأسود وهو كان الأصل فى بناء النحو وعقده ويروى عن أبى جعفر بن رستم النحوى أن أباالأسود راعه لحن ابنته فشكا إلى الإمام على وقال يا أمير المؤمنين ذهبت لغة العرب لما خالطت الأعاجم وقص عليه لحن ابنته فأمره فاشترى صحفاً بدرهم وأملى عليه أن الكلام كله لايخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ثم رسم أصول النحو كلها فنقلها النحويون وفرعوها ثم قال وهذا شىء سمعته وأنا صغير فرويته بمعناه .

ونقل عن اللدائنى قال « أمر زياد أبا الأسود الدؤلى أن ينقط المصاحف فنقطها ورسم من النحو رسوماً اه . وتشهد روايات المدائنى له بالتثبت والتحرى .

(٦) وأبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى (سنة ٣٦٨) يقول فى كتاب أخبار النحويين البصريين : —

اختلف النـــاس فى أول من رسم النحو فقال قائلون أبو الأسود الدؤلى وقال آخرون نصر بن عاصم وقال آخرون بل عبد الرحمن ابن هرمز وأكثر الناس على أبى الأسود .

ثم قال « واختلف الناس فى السبب الذى دعا أبا الأسود إلى مارسمه من النحو فقال أبو عبيدة يعمر بن المثنى أخذ أبو الأسود عن على بن أبى طالب عليه السلام العربية فكان لايخرج شيئاً مما أخذه عن على إلى أحد حتى بعث إليه زياد أن اعمل شيئاً تكون فيه إماماً ينتفع الناس به وتعرب به كتاب الله فاستعفاه حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ «إن الله برىء من المشركين ورسوله » فقال ماظننت أمر الناس صار إلى هذا فرجع إلى زياد فقال أفعل ما أمر به الأمير فليبلغنى كاتباً لقنا يفعل ما أقول ، فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه فأتى بآخر — قال أبو العباس أحسبه منهم — فقال أبو الأسود إذا رأيتنى فتحت فمى بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه فإن ضممت فمى فانقط نقطة بين يدى الحرف فإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف فإن أتبعت شيئاً من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين. فهذا نقط أبى الأسوداه. »

ونسخة هذا الكتاب التى نقلت عنها صحيحة جيدة كتبت فى زمن قريب من زمن المؤلف وصورتها الشمسية بمكتبة جامعة فؤاد الأول

ونقل هذه العبارة بنصها ابن النديم فى الفهرست وزاد عند كلمة (أبى العباس) كلمة « المبرد » أقول ودخول أبى العباس المبرد فى سياق حديث أبى عبيدة ولم يذكر اسمه من قبل يستلزم أن نفهم أن النص قرئ على أبى العباس أو رواه فزاد فيه مانسب إليه .

(٧) محمد بن اسحق النديم صاحب الفهرست (حوّل سنة ٣٨٠) يقول زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبى الأسود الدؤلى وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام وقال آخرون رسم النحو نصر بن عاصم وقرأت بخط أبى عبد الله بن مقلة أنه قال :

كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية .

وأقوال العلماء بعد هذا نقل منه وجمع له كما نرى فى طبقات الأدباء لابن الأنبارى وطبقات النحاة للقفطى وفى رسالة السيوطى (السبب فى وضع العربية) .

ويزيد ابن الأنبارى (سنة ٥٧٧) أن لأبى الأسود مختصراً فى النحو منسوباً إليه ويلخص الأقوال فيقول :

كان أبو الأسود أول من وضع النحو بالبصرة وزعم قوم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز وزعم آخرون أنه نصر ابن عاصم . فأما من زعم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز أو نصر بن عاصم فليس بصحيح والصحيح أن أول من وضع النحو على بن أبى طالب لأن الروايات كلها تسند إلى أبى الأسود وأبو الأسود يسنده إلى على .

فإن كان النحو للإمام على فقد وضع قبل سنة ٤٠ وإن كان لأبى الأسود بمشورة زياد فقد وضع بالبصرة بين سنتى ٤٥ و ٥٠ أيام زياد بالبصرة أو ٥٣ سنة وفاته بالكوفة .

وكلا الأمرين يجعل وضع النحو مبكراً جداً ، والباحثون حديثاً يستبعدون هذا التبكير ويرون فيه شذوذاً للنحو عن تطور الحياة العربية ونشأة علومها ويقول المستشرقون إن إسناد وضع النحو إلى أبى الأسود من حديث الخرافة ويقول المرحوم صادق الرافعى فى كتابه أدب العرب « إن تاريخ وضع النحو لاسبيل إلى تحقيقه البتة » .

وقد حاولت أن أجد منهجاً آخر للبحث فرجعت إلى كتب النحو لا كتب التاريخ ونظرت فى الأشمونى والتصريح والهمع والارتشاف والمفصل والإنصاف وعنيت بكتاب سيبويه وجمعت أسماء من أسند إليهم رأى نحوى ورتبتها على تواريخها لأعلم أقدم عالم نسبت إليه مسألة نحوية وهذا إحصاء ماجاء فى كتاب سيبويه :

(١) عبدالله بن إسحاق المتوفى سنة ١١٧ فى ٦ مواضع .

(٢) عيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة ١٥٠ فى ١٨ موضعاً .

(٣) أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ فى ٣٩ موضعاً .

(٤) الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٦٠ فى

٣٧٦ موضعا وأكثر نقل سيبويه عنه .

(٥) يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٥ فى ١٥٥ موضعاً .

وأقدم هؤلاء هو عبد الله بن أبى إسحاق وتسند إليه آراء نحوية حتى فى كتب المتأخرين كالأشمونى المتوفى سنة ٩٠٠ والسيوطى سنة ٩١١ .

وأول مانلاحظ أنا لم نجد فى كتاب سيبويه ولا فيما بعده من الكتب التى نظرناها أى رأى نحوى منسوب إلى أبى الأسود ولا إلى طبقتين من النحاة معه .

ونعلم أن النحاة المتأخرين منهم خاصة يعنون بذكر الخلافات والإحاطة بها وأسنادها وأن ذلك كان يخول لى مطمئناً أن أرسل الحكم عاماً . ولكنى أقف عند أضيق حدود النتيجة فأقرر « أن أقدم من نسب إليه رأى نحوى فى الكتب التى بأيدينا الآن هو عبد الله بن أبى إسحاق » .

فاذا عدت بهذه النتيجة لأقرأ بنورها النصوص والروايات التى جمعتها وجدت أنهم يقولون « أول من رسم النحـــو » ، « أول من وضع فى العربية » ، « أول من وضع نقط المصحف » . فعمل أبى الأسود الذى لايرتاب فيه هو نقط المصحف لا إعرابه وذلك بنقط آخر الكلمة ، نقطة فوق الحرف للفتحة ، ونقطة تحته للكسر ، وللضمة نقطة بين يدي الحرف وهذا هو العمل الذى يستدعى كاتباً لقناً كما طلب أبو الأسود من زياد وهذا هو العمل الذى بقيت آثاره إلى الآن فى بعض مصاحفنا ... وأبو الأسود قد أخذ القرآن عن الإمام على ورواية حفص التى يقرأ بها مسندة أيضاً إلى الإمام على ..

أما عبد الرحمن بن هرمز فقد كان من كبار التابعين وكان من أمثال الخليل والحسن البصرى وأولئك الذين أثروا فى التفكير العربى تأثيراً قوياً ثم لم يذكرهم التاريخ إلا قليلا . روى أن مالكاً اختلف إليه فى علم لم يبثه فى الناس يرون أن ذلك كان فى أصول الدين .

وقد أقام بالحجاز وبالعراق وقصد إلى الإسكندرية وتوفى بها وينسب إليه مسجد فى حى رأس التين فإن يكن له فقد جازته مصر الشكورة بما أنكرته الرواية وكتب التاريخ . وأرى أن إسناد بعضهم وضع النحو إليه لايخلو من دلالة على مشاركته لأبى الأسود الرأى فى اختطاط مارسموا من ضبط المصحف بالنقط .

أما نصر بن عاصم فإنهم لايختلفون فى أنه هو الذى وضع نقط الإعجام بطلب من الحجاج بن يوسف وهى النقط التى لانزال نستعملها فى تمييز الحروف المتشابهة فى الرسم كالباء والتاء والثاء والنون .

فقد مضى القرن الأول الإسلامى فى ضبط المصحف وإعرابه وكانوا يختلفون فيقولون النحو الرفع أو العربية الرفع ، يعنون طريق العرب ومجازها فى القول . وابن جنى يقول « النحو انتحاء سمت العرب فى القول » . وكذلك ورد فى اللسان . وكانوا يسمون نقط أبى الأسود إعراباً ونقط نصر إعجاماً .

أما هذا النحو الذى بأيدينا فنشأ مع القرن الثانى ، وأول من تكلم فى مسألة من مسائله عبد الله بن أبى إسحاق، يقول ابن سلام « أول من نهج النحو ومد القياس والعلل عبد الله بن أبى إسحاق » وفى طبقات الأدباء أنه أول من علل النحو وكان شديد التجريد للقياس.

وسئل يونس عن أبى إسحق وعلمه فقال : « هو والنحو سواء » أى هى الغاية فيه ثم قال « ولو كان فى الناس اليوم من لا يعلم إلا علمه لضحك به، ولو كان فيهم من له نظره وصفاء ذهنه كان أعلم الناس » .

وقد يشير هذا إلى أولية النحو وبدء الاهتداء إلى مد القياس . على أن النحاة حين هدوا إلى ذلك تسارعوا فيه وتواصوا به وتناهوا عن غيزه ... سئل عيسى بن عمر الثقفى أتقول العـــرب السقر فأجاب نعم والزقر أيضاً . مالك ولهذا ؟ عليك بباب من النحو يطرد وينقاس .

فلم يكد ينتهى هذا القرن حتى كان النحو قد استوى علماً تاماً جامعاً كما نراه الآن فى كتاب سيبويه .

وهذا هو العلم الذى نحاول أن نعرف كيف اشتق من الكلام العربى وكيف قررت أصوله .

فى هذا القرن كانت اللغة العربية قد تعرضت لاضطراب شديد: فقد تفرق العرب فى البلاد التى فتحوها وامتزجوا بأهلها ونشأت الناشئة العربية فى رعاية الإماء والأظآر من غير العرب ودرج على ذلك جيل وجيل حتى حالت الألسن عن السليقة وارتضخت باللحن وانحرفت عن العربية . كان الوليد بن عبد الملك لحاناً وأخوه محمد . وكان عبيد الله بن زياد أوفر حظاً من اللحن . والحجاج بن يوسف يخشى اللحن ويلحن . سأل يوماً يحيى بن يعمر النحوى أترانى ألحن فقال الأمير أجل من ذلك فلما ألح عليه قال نعم وفى حرف من القرآن . وخالد بن صفوان الخطيب المبين يقول له بلال بن أبى بردة تحدثنى حديث الخلفاء وتلحن لحن السقاوات ؟ فهذا شأن الخاصة والأمراء وهم شديدو الاعتزاز بلغتهم والتباهى بالفصاحة فيها فكيف ترى حال العامة ؟

وقد صحب هذا الاضطراب اختلاط آخر كان بين مختلف القبائل العربية إذا اجتمعت فى الجيوش والمهاجر فتقارضوا اللهجات بينهم .

كان عبد الله بن قيس الرقيات وهو قريشى يلهج لهجة يمنية (١) وكان الفرزدق التميمى ينطق من لهجة قريش فيخطئ حدودها ويقول قولا لا يصححه قرشى ولا تميمى(٢) وكان حسان يجمع فى البيت الواحد بين لهجتين مختلفتين(٣) . وأمثلة ذلك معروفة لهؤلاء ولغيرهم .

---

(١) يقول :

تولى قتال المارقين بنفسه ... وقد أسلماه مبعد وحميم

(٢) فى قوله :

فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم ... إذ هم قريش وإذ ما مثلهم بشر

(٣) يقول :

بكت عينى وحق لها بكاها ... وما يغنى البكاء ولا العويل

ويقول غيره :

وأشرب الماء ما بى نحوه ظمأ ... إلا لأن عيونه سال واديها

فى هذا المزيج المضطرب أخذ النحاة يرصدون كلام العرب ليضعوا قواعده فرفضوا أن يسمعوا من أحد إلا من كان قد بقى محبوساً فى البادية فى جزء محدود منها رأوا أنه قد سلم من الإختلاط وهو الجزء الغربى من نجد ومايتصل به من السفوح الشرقية لجبال الحجاز وهو الذى يسمونه عالية السافلة وسافلة العالية ويقول أبو عمرو بن العلاء لا أقول قالت العرب إلا ماسمعت من عالية السافلة وسافلة العالية .

وكان يسكنها من القبائل تميم وأسد وطى وقبائل من قيس . وقد أخذوا عن طى وهى يمنية ورفضوا أن يأخذوا من سكان الحجاز وفيهم قريش وثقيف . ومن قبل هذا كان عثمان يقول لايملين فى مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف .

فهذا مأخذ النحاة من اللغة وكانوا يرحلون إلى هذه البوادى يطيلون الإقامة فيها يطلبون أولا تقويم ألسنتهم واكتساب الملكة اللغوية الصحيحة ثم يجمعون من الألفاظ والأشعار والأخبار مايكون مادة علمهم ووسيلة رزقهم وحظوتهم فى الحياة . ويرقبون مايسمعون ليضعوا القواعد وليختبروها . قال أبو زيد الأنصارى طفت فى علْيا قيس وتميم مدة أسأل صغيرهم وكبيرهم لأعرف ماكان أولى بالضم وماكان أولى بالفتح من عين الثلاثى فى المضارع فلم أجد لذلك قياساً يرجعون إليه وإنما يتكلم كل امرئ منهم على حسب ما يستحسن ويستخف لاعلى غير ذلك .

كان قليل من النحاة لايرون إلا السماع بالبادية وهو مذهب أبى عمرو بن العلاء وكان جمهور النحاة يرون أن يسمعوا بالبادية وأن يسمعوا من الأعراب الفصحاء الذين ينزلون الحضر ليرتزقوا برواية الأخبار والأشعار أو بتعليم من شاء من أبناء الأمراء أو الخاصة وكان لهم وظائف بحاشية الخليفة والأمراء . وابن المقفع أخذ البلاغة عن أبى ثروان أحد هؤلاء الاعراب وفى فهرست ابن النديم عدد كبير من هؤلاء الأعراب قال « وإنما ذكرتهم لأن العلماء أخذوا عنهم » .

وكما سمع النحاة بالبادية ومن فصحاء البدو الطارئين على الحضر سمعوا من مصدر ثالث يسترعى أنظارنا ، سمعوا من الموالى الذين صحت عند النحاة سليقتهم واستقامت ألسنتهم مثل خلف الأحمر والحسن البصرى والمنتجع النبهانى وكان سندياً ، كما استشهدوا بشعر بشار وأبى نواس وأبان .

فالأصل الأول من أصول النحو الاستماع ممن سلمت سليقته وصحت عربيته .

أما الأصل الثانى فجاء من دقة نظر النحاة وفقههم لأسرار اللغة . وقد وفقوا فى هذا إلى مدى بعيد .

رأوا أن المتكلم يجرى فى كلامه على قواعد ونظم يصدر عنها ولايتجاوز سننها وإن لم يفطن لها وأخذوا يحاولون كشف هذه النظم وتدوينها وسموها علل النحو ثم غلب الإيجاز فسميت النحو .

درسوا حروف الهجاء فحددوا مخارجها وصفاتها وكشفوا عن خصائصها وأثر بعضها فى بعض . فحرفان لايلتقيان فى كلمة عربية

كالجيم والكاف والجيم والقاف والقاف والكاف والحاء والهاء . وحرفان إذا اجتمعا وجب أن يسبق واحد بعينه وهو الأقوى مثل «ورل» و « وتد » الراء تسبق اللام وليس فى كلامهم « ل » بعدها « راء » فى كلمة واحدة . وقد سمعنا العامة حين شاع اسم « هتلر » ينطقونه « هلتر » بتقديم اللام حتى لاتليها الراء وقد أبتها سليقهم اللغوية من غير وعى أو فطنة لها . وفى القرآن الكريم « بل ران » يقرؤها حفص بسكتة خفيفة على اللام وليس حفص من القراء الذين يستعملون السكت ولكن هذه السكتة جاءت للتهيؤ للنطق بالراء بعد اللام .

وحرفان إذا اجتمعا أثر أحدهما فى الآخر وقد يكون ذلك محتوماً وقد يكون جائزاً ومن ذلك الياء والواو فى سيد والتاء فى اصطبر والسين فى قصط والصاد فى يزدق ويزدر وقرئ « حتى يزدر الرعاء » .

ولاتكون كلمة خماسية خالية من حرف من حروف الزلاقة الستة (ف ر م ن ل ب) قالوا فإن جاءك بناء يخالف مارسم مثل دعشق فانه ليس من كلام العرب فارددده .

وهذا كثير جداً فى كتب النحاة المتقدمين(١) وإن قلت عناية المتأخرين به . وكأنما رأوا أن هذه اللغة قد غلب عليها الشعر والموسيقى فاتخذت كلماتها صيغاً مخصوصة وموازين محدودة إذا خرج بناء الكلمة عنها رفضوا أن تكون عربية .

ولما رأوا تأثير الحروف بعضها فى بعض والحركات أيضاً حين تبنى الكلمة نظروا تأثير كلمة فى أخرى حين تؤلف الجملة وأحصوا هذا التأثير وأنواعه ووضعوا له أصولا مطردة فقالوا إن الحرف قد يؤثر فى الاسم أو فى الفعل ولايؤثر حتى يكون مختصاً بالكلمة التى يعمل فيها . فـ« لم » تعمل الجزم فى الفعل لأنها تختص به ، و « من » تعمل الجر فى الاسم لأنها تختص به ، و « هل » لاتعمل لأنها لا تختص بالاسم ولا بالفعل . وهذا مثل من آلاف تملأ كتب النحو بل فى فلسفة النحو وعصب مناقشاته وقد جمعت منها عدداً فى « إحياء النحو » .

ولما استقامت للنحاة هذه الأحكام أخذوا يفرضونها على كل ناطق بالعربية وعلى العرب أنفسهم .

خطئوا بها بعض الشعراء من فحول الجاهلية وناهيكم بالنابغة رووا له قوله :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة
من الرقش فى أنيابها السم ناقع

فقالوا كان ينبغى أن يقول « السم ناقعاً » أو « السم الناقع » .

ورفضوا بها بعض أساليب العرب : سمعوا من العرب « قاتل زيد عمرو » برفع الاسمين فقالوا لايكون ، ليس لنا فعل يعمل رفعين ولو جاز هذا لجاز « قاتل زيدا عمرا »

(١) أنظر ص ٢٤٥ آخر الجزء الثانى والعين ومختصره ومقدمة الجمهرة — واللسان فى أول كل باب والمزهر — وتشريح الحروف للنضر بن شميل وسر صناعة الاعراب لابن جنى .

بنصب الاسمين فكان فعل بلا فاعل وهو محال .

وفضلوا بها لهجة على لهجة ، قالوا لغة تميم فى إهمال « ما » أقيس من لغة الحجاز فى إعمالها لأن « ما » غير مختصة بالاسم وغير المختص لايعمل .

وسمعوا تميما تقول «ليس الطيب إلاالمسكُ» برفع الخبز ، ولاينصب تميمى خبز ليس إذا انتقض نفيها فقالوا إن « ليس » لم تعمل من أجل النفى فيبطل عملها إذا انتقض نفيها وإنما عملت لأنها من أخوات كان . وقد مضى على الألسن مارجحه النحاة .

خضعت للنحاة أقلام الكتاب قاطبة ، وخضع الشعراء ولكنهم لم يكونوا فى انقياد الكتاب وسرعة استجابتهم بل أثاروا خصومة عنيفة ، فالنحاة ينقدون ويخطئون والشعراء يهجون ويوجعون وتنتهى المعركة باستسلام الشعراء وتقدمهم إلى النحاة طائعين متبعين . وكانت معركة عنيفة طريفة ومن أطرف مايمثلها خصومتهم للفرزدق كان أبياً شامخ الأنف يعز عليه أن يخضع للموالى فى لغته وكان حريصاً على أن يدرس النحاة شعره ويرووا قصائده وألا يضعوا من منزلته بين منافسيه بنقدهم شعره . أنشد يوماً :

مستقبلين رياح الشام تضربهم
بحاصب كنديف القطن منثور
على كواهلنا يلقى وارحلنا
على زواحف تزجى مخها رير

فقال عبد الله بل النحو مخها رير أو رار بالرفع ورير أى لامخ فى عظامها . وغضب الفرزدق فهجاه بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته
ولكن عبد الله مولى مواليـاً

فيقول عبد الله « بل قل مولى موالى » .

ثم يستسلم الفرزدق ويأتى بشعره فيقول أين هذا الذى يجر خصييه بالمسجد ليصلحه — يعنى عبد الله .

وقد كان بينهما طريق لطيف للتفاهم قال الفرزدق :

وعينان قال الله كونا فكانتا
فعولان بالألباب ماتفعل الخمر

فسأله عبد الله هلا قلت « فعولين » فقال الفرزدق « لو شئت لسبحت » وانصرف ولم يفهم السامعون عنه فقال عبد الله أراد كونا فكانتا وسبحان من يقول كن فيكون .

وعمدوا إلى قراء القرآن فلم يقبلوا منهم كل ماروووا بل خطئوهم فى بعض مايقرؤون به : قرأ حمزة « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » بكسر الميم وهو أحد القراءالسبعة وقرأ الباقون بفتحها فقال النحاة لايعطف على مضمر مخفوض إلا بإعادة خافضه فردوها وقال سيبويه هى عندى قبيحة لا تجوز إلا فى الشعر كما قال :

اليوم قد جئت تهجونا وتشتمنا
فاذهب فمابك والأيام من حرج

وقرأ ابن عامر وهو قارئ الشام من القراء السبعة أيضاً « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم » « زين » بالبناء للمجهول

و « قتل » بالرفع و « أولادهم » بالنصب و « شركائهم » بالجر . فأضاف المصدر إلى الفاعل وفصل بينهما بالمفعول — ورد النحاة هذه القراءة لأنهم لايجيزون الفصل بين المضاف والمضاف إليه فى مثل هذا ثم قال الزمخشرى « إن الفصل بينهما لو كان فى مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجاً مردوداً فكيف به فى القرآن المعجز .

ومثل هذا غير قليل بين القراء والنحاة فى هذا العصر .

أما الحديث فقد رفضوه جملة قالوا : رواته لايحسنون العربية فيلحنون فلاحجة فى الحديث ولا استشهاد به .

ولقد مكن النحاة من فرض آرائهم مابيناه من اضطراب اللغة واختلاط اللهجات فكانت شريعتهم « نأخذ بالأغلب ونقول ماعداه لغات » وليس من شك فى أنهم ساعدوا بذلك على تهذيب اللغة وطرد قواعدها وطرح شواذها فاللغة التى تجرى بها أقلامنا وألسنتنا لغة عربية نحوية للنحاة فى طرد قواعدها أثر ذو قدر .

قرأ القراء « الحمد لله رب العالمين » فنصب الدال بعضهم وخفض آخرون فى كثير غير هذا من القراءات الشاذة التى صح سندها ولكن النحاة صرفوا الناس عن قراءتها فشذذوها .

فإذا انتهى القرن الثانى فقد ضعف شأن البادية ولغتها وقلت الرحلة إليها أو انقطعت وأخذ النحاة يستشهدون بمن وثقوا بعربيته من الشعراء كأبى تمام والشريف الرضى والمعرى كما استشهد من قبلهم بشعر بشار وأبى نواس وخلف الأحمر واستمروا فى بحثهم حتى استبحر النحو واشتغل به مع النحاة المتكلمون والفقهاء والفلاسفة بل اشتغل النحاة بهذه العلوم واتخذوا منها الوسائل لخدمة النحو ومزجوها بأبحاثهم وسموا كتبهم «أسرار العربية» و « سر صناعة العربية » ووصلوا فى فقه اللغة إلى مدى بلغ بالنحو أوجه .

ثم شهدت الحياة العربية تلك الموجة الحنبلية الشعبية التى ردت الناس إلى القديم وبالغت فى تقديسه وضاقت ببعض البحث واستنكرت لباحثيه ولاننسى مالقى عالم المسلمين الإمام ابن جرير من جمهور الحنابلة حياً وميتاً . كانت هذه الموجة من عقبى تطرف المعتزلة والمأمون والتورط فى إكراه الناس على قول فى خلق القرآن وليس فى الفلسفة إكراه ولا فى الدين إكراه ولكن المأمون يستند لسند توهمه من الفلسفة ومن الدين دأب على محنة الناس برأيه ودأب المعتصم بعده حتى كره الجمهور المعتزلة والفلسفة والرأى وأعجب بجلد الإمام ابن حنبل وخلبه تضحيته فدخل الناس فى الحنبلية أفواجاً وتطرفوا كما تطرف المأمون وكان تطرف الجمهور أعنف وأعصف فضاعت المجاهرة بالرأى والمناقشة فيه وعطلت مجالس المناظرة فى البحث وهى تدين العلم بكثير وجمجم العلماء بآرائهم . وابن جنى فى أول الخصائص يتساءل هل اللغة بإلهام أم باصطلاح ويعطى كل دليل على أنها اصطلاح ثم يقول ومازال الرأى يضطرب فى نفسى والحجج تتقارض فإن بدا لى من بعد رأى كتبته . وأخذ فى توجيه كل قراءة شاذة

وكتابه « المحتسب » جمع فيه القراءات الشاذة وجاهد فى توجيهها والاحتجاج لها ، وقرر أن كل قراءة شاذة يحتج بها فى العربية . ولو كان ذلك من رأى أسلافه ما شذذها . على أن الحنبلية لم تؤثر فى النحو ولا فى نشاط البحث ما أثرت المحنة التى لقيتها من إنشاء المدارس الموجهة والمنشأة للتلقين ولتأييد مذهب : مدارس يرزق معلموها ويكفى متعلموها كل حاجة ليدرسوا علوماً تحدد ، فى خطة ترسم ، تأييداً لمذهب يقصد ، كما فعل الفاطميون بالأزهر حين أنشئ وكما فعل « نظام الملك » فى إنشاء المدارس النظامية ببغداد وغيرها ؛ فقد أحلت علوم وحرمت علوم . وحفظنا فى حق المنطق « فابن الصلاح والنواوى حرما » وما أحل من العلوم فسبيله التلقين والحفظ والرواية . وبزغ نجم الحافظة وطغت أسماء الحفاظ وفازوا بأكبر الإعجاب ، واحتيل لحفظ العلوم باختصار المتون وبالرمز فيها وبنظمها . وروينا « من حفظ المتون حاز الفنون » وحفظنا من الرموز أمثال :

كوى كبدى كرير لمى بلحظ
كأن به لقلب الحب نارا

وهذا فى المنطق وفى صور القياس . وكم يتوارد على الآن من هذه الرموز فتتحرك شفتاى عجباً بل هزءاً منى ، كيف صبرت لهذا فحفظته ، وكيف قدرته علماً فزهوت به ؟ ولكنه حكم الجيل بل حكم الزمان .

وليت ذلك كان كافياً للمتعلمين فى عونهم على حفظ ما كتب عليهم . فقد يروى أنهم كانوا يتناولون الأدوية والعقاقير لتفتح رؤوسهم لما يحشر فيها من العلم .

حكى بهاء الدين صاحب سيرة صلاح الدين أنه لما كان بالمدرسة النظامية اتفق أربعة أوخمسة من المشتغلين بالطلب على استعمال حب البلاذر ليقوى حفظهم ويحميهم من النسيان ، وسألوا طبيباً جاهلا فأخطأ التقدير واستكثر لهم ، فلما خرجوا ليستعملوه جُنُّوا ولم يدر أحد ماجرى لهم . وبعد أيام جاء إلى المدرسة واحد منهم وهو عريان وجلس فى سكون وصمت وتوقر لا يتكلم ولا يعبث ، فلما تقدم واحد ليسأله قال : اجتمعنا وشربنا حب البلاذر فأما إخوانى شفاهم الله فإنهم جنوا وماسلم إلا أنا . اهـ .

وفى كتب الطب أن حب البلاذر نافع من النسيان وذهاب الحفظ وإذا شرب منه نصف درهم نفع لجودة الحفظ والله أعلم .

ولم يكن النحو مما حرم من العلوم بل أحل واستكثر منه لأنه علم لفظى ولكنه اتخذ سبيل زمنه فى الدرس من جمع الآراء واختصار المتون ونظمها وشرحها . وكتبنا فى النحو هى إرث هذا الزمن ؛ فهى أوسع كتب النحو جمعاً للآراء المختلفة وسرداً للمذاهب المتقابلة ؛ لانحفظها حتى ننساها وحتى تهم أيدينا أن تمتد إلى حب البلاذر .

إنها ثروة مستفيضة واسعة حتى كانت من عيوبها سعتها ؛ فإنها تمدنا بالحكم ونقيضه فى الموضع الواحد . وقد لا يعجز نحوى أن يجد توجيها لقول يقوله . وما ينبغى أن يكون كذلك النحو .

وهو ميزان القول وقانونه وما كان كذلك بين أيدى نحاتنا المتقدمين .

ليس لنا من سبيل فى النحو إلا سبيل النحاة الأولين الذين وضعوا النحو فى القرن الثانى وطرف من الثالث ، ورأيناهم قد استنبطوا قواعدهم بمراقبتهم للغة أهل البادية زمناً وللغة من وثقوا بعربيته من العرب والمتعربين .

فإذا أردنا أن نتأثر سبيله فعلينا أن نقوم بأمرين : الأول أن ننظر فى آثار أدبائنا من الكتاب والشعراء . فمن رأيناه سليم الأسلوب صحيح العربية وثقناه وجعلنا كلامه مدداً للغة وحجة فى النحو ، وقد وثق المتقدمون كبار شعرائهم واحتجوا بأقوالهم من بشار إلى المعرى. فإن كان فى آثار أدبائنا من يساير أولئك فى بيانه وسلامة أسلوبه أعطيناه من الحق ما أعطى له ولم يكن عملنا بدعاً من عمل ماقبلنا ؛ فالأديب السليم السليقة أحسن تصرفاً فى اللغة وأدق ذوقاً لها وأفصل بحكمها من نحوى حفظ نحو عصرنا على اضطرابه واختلاف أحكامه . وإن عمل الأديب الممتاز بكل وقت وفى كل لغة هو الثروة الحقيقية والمدد المحيى لها .

وقد كان من عمل المجمع أن نوه بآثار بعض الأدباء وأجاز بعضهم . فمن كمال هذا التنويه أن يقرر أن هذا الأديب سليم العربية نقى العبارة : وإن هذا ليزيد صلة المجمع بالأدباء وقدرته على توجيه الأدب .

الثانى : أن نعمل على تجديد النحو بأن نستخدم فى بحث اللغة كل الوسائل العلمية التى تمكن من درس اللغة وفقهها وكشف أسرارها كما فعل المتقدمون ، ولدينا الآن من الوسائل أكثر مما كان بين أيديهم من مغامل الصوت ونظرياته ، ومن علم اللسان العام ، ومن المقارنات بين اللغات ، وهى وسائل لو أنها قد هيئت للمتقدمين ، لما توانوا عن استخدامها وحسن الانتفاع بها .

الاقتراح

واقتراحى الذى أتشرف بتقديمه إلى المجمع هو :

أولا : أن ينظر فى آثار أدبائنا من الكتاب والشعراء ، وربما حسن أن نقتصر على من مضى به التاريخ مدة لاتجعل للمودة أو غيرها شبهة الأثر فى الحكم ، فمن رأى المجمع صحة أسلوبه واستقامة عربيته وثقه وجعل قوله مدداً للغة وحجة فيها .

الثانى : أن نسعى لدى الهيئات التى تتصل بدرس النحو واللغة وأن نتعاون معها فى وضع درس النحو على أسس من الدراسات اللغوية الحديثة وعلى الإكثار من البعثات لدرس علوم اللغات بأوربا وأمريكا والتخصص فيها حتى يكون لنا من هؤلاء الدارسين بقدر مالنا الآن من العلماء فى نحو « ألفية ابن مالك » .